ستة جنيهات

قصة مصرية

هناك من يعطي بغبطة فالغبطة جزاؤه . وهنالك من يعطي بألم فالألم معموديته . وهنالك من يعطي فلا يشعر بألم ولا يبتغي غبطة ولا هو يعطي لأن العطاء فضيلة . هؤلاء يعطون كما يفوح شذا الريحان في ذلك الوادي يعطر الأرجاء

من كتاب « النبي » لجبران خليل جبران

البدر مطلٌّ على القرية الهاجعة وأكواخها الطينية الحقيرة ، والفلاحون المكدودون غارقون في بحار الكرى يستريحون من تعب النهار الماضي ويتأهبون لتعب النهار الجديد . ولم يبقَ منهم مستيقظاً إلاّ من أرّقته الهواجس وأقضّت مضجعه الهموم

وفي واحد من هذه الأكواخ على كومة من شواشي الذرة رقد طفلان متعانقان الى يسارهما امرأة منبطحة على الارض تحمل يداها المطويتان جبينها المهموم . امرأة كدح وعمل كانت تستيقظ قبل ان تستيقظ الطيور لتخدم زوجها وولديها والبقرة ، ولا تأوي الى أحضان النوم إلا بعد ان تلفظها اليقظة . . تلفظها مياة مكدودة لا تصلح لعمل.

أحسّت من أربعة أشهر تشعر بأن عينيها تظلمان تدريجيًا (1) ، وخيل اليها ان المرئيات تلبس قناعاً خفيفاً أخذ يزداد كثافة حتى أصبحت لا تميز طفليها بين الاطفال ولا زوجها بين الرجال . ساورها همٌّ شديد ولم تنفع الوصفات العديدة التي جربتها ، وأوصدت السماء أبوابها ونوافذها . وعبثاً مضت تناجي ربها بأنها مخلوق طاهر كأنقى الازهار التي خلقها وأن عينيها لم تشتهيا شخصاً او شيئاً لا يحلّ لها ان تشتهيه ، ولم تنصبا شركاً لشاب ولم ترشقا سهماً على رجل ، ولم تتفتحا على ريبة . وأنها تريدهما لتستطيع أن تحلب البقرة ولترى طريقها الى المدينة لتبيع اللبن وتأتي بالدريهمات المعدودة ولتحمل لزوجها غداءه الى الحقل ولتكدح في دارها طول نهارها في سبيل زوجها وأولادها . وعبثاً سالت دموعها وهي تتساءل عما يبقى لها من متعة في الحياة ان حرمت من ان ترى زوجها عائداً في المساء يطلب الراحة الى جوارها بعد عمل النهار المضني، وابنها الشرس الفاجر ينهى ويأمر في ابناء الجيران ، وبنتها الجميلة كبنات النادر ! . . . ما الذي يبقى لها ان كانت لا تستطيع ان ترى الحقول الخضراء والسماء الزرقاء ، ان غابت الشمس عن عينيها ثم لم تشرق عليها مرة أخرى وان احتجبت القمرة لم تعد بعدها الى الظهور . . ثم احد زوجها . . . أتراه

(١) المرض الموصوف في هذه القصة هو الكتاراكت (ماء العين)

يصبر على زوجة عمياء ؟ وهو الرجل الفقير الذي يريدها شريكته في الجهاد . ماذا يصنع بشريك اعمى ! وطفلاها . . . اينشآن في ظل ام عمياء تطلب من عنايتهما اكثر مما تعطيهما من عنايتها . وكانت المرأة تجتر قصتها الموجعة وتستعيد ذكر الشهور التعسة المملوءة بالشكوك والمخاوف

وأخيراً فتحت السماء نافذة صغيرة ، وطاف عم حسنين المنادي « يعلن عن اسبتالية الرمد المجانية » وقضت ليلة سعيدة والآمال ترفرف حولها . . . سيشفيها الحكيم . . وسيمزق الحجب القاتمة عن عينيها ، ستبيع دماليجها الفضية وتفي نذورها للاولياء . . . لن تعثر في الاشياء ولن تتهامس عليها جاراتها ، وستتجلى النعمة ويضحك لها كل شيء كما كان .

وفي الصباح الباكر ذهبت تقودها خالتها الى المستشفى وقلبها الصغير يتفجر آمالاً . . . ودخلت في دورها الى الحكيم في الحجرة العجيبة المملوءة بالآلات البراقة التي يصنع بها الطبيب عيوناً للعمي بقطراته اللاذعة وسكاكينه الماضية . وبعد ان فحص عينيها قال لها كلمات لم تفهمها لا هي ولا خالتها ثم قال ان عينيها تحتاجان الى عملية وذكر اسم طبيب في طنطا نصحها بالالتجاء اليه في خلال شهر على الاكثر وإلا عميت وقال لها ان اجرة ذلك الطبيب عشرة قروش

اما هو الطبيب المجاني . . . الطبيب الوحيد الذي يستطيع أن يمنحها نعمة البصر ولا يأخذ منها الا كل ما تستطيع ان تدفع وهو لا شيء . . هو فرصتها الوحيدة وأملها الفرد فانه لم يصنع شيئاً في عينيها . . وخرجت كما دخلت تتعثر . . حاملة عماها معها

وسمع زوجها القصة القصيرة قصة الامل الذي عاش عمر الزهرة . . وكم كانت تخشى غضبته ! . . ولكن الرجل الجلود الصابر قال لها انه سيأخذها غداً الى طنطا و « ربنا يدبرها » وأكد لها ان « ربنا فداها » وان « البرزة امرها هين » وعن لوان الظروف تسعده اذاً لكان يأخذها الى مصر لا الى طنطا فقط . وطاب خاطرها وأفرخ الامل مرة ثانية في صدرها ونامت وهي تحلم بارتداد النور الى بصرها

***

وفي الصباح الباكر كانت في طريقها مع زوجها الى المدينة وقد اركبها حماراً استعاره وسار الى جوارها ويده تطوق خصرها وحنانه يغمرها . وكان قلبها فائضاً بالسعادة ووجنتاها تلمعان تحت قبلات نسيم الصباح ولم يكن ينقصها الا بصرها . . آه لو ابصرت . . ولم تكن تعلم من اين أتى بالبرزة ولكنها كانت شديدة اليقين به ، اليس رجلاً يعرف الحياة ويعرف وسائل الكفاح فيها ! ! سبعها الذي لا تتنكر عليه المظالم ! ! في سواد

ليلة واحدة أن بالبرزة . حاه الله لها ورد اليها بصرها حتى تصبح لائقة به مستحقة له

ووصلا الى عيادة الطبيب الشهير وجلسا ينتظران دورهما ودخلت مرة ثانية الى الغرفة العجيبة التي يصطنعون فيها عيوناً تعمي وتلمست الاصابع القادرة عينيها وكانت الثواني تمر كاجيال واخيراً قال الرجل انه لا بد من العملية في بحر اسبوع حتماً ، وأن اجرة العملية عشرة جنيهات ! ! !

تصور أيها القارئ . . . عشرة جنيهات ! ! !

***

لم يسقط الرجل مصعوقاً ، ولم تصب المرأة بنوبة . بل اقتحمت المرأة طريقها في الغرفة على غير هدى كانما تهرب من فوهة بركان ووقف الرجل مشدوهاً يحدق في الطبيب برهة ثم ولاه ظهره ولحق بامرأته وكاد ان يخرج ويتلق ما بينه وبين الطبيب الى الابد ولكنه استدار وفمه علوه بدعوات مبة كانت تصدر منه صدوراً آلياً .. وكان يرجو من الطبيب ان يقطر لها في عينيها شيئاً يفيدها مقابل البرزة . . ومسح دمعة تحدرت رغماً عنه وبقيو عليه تقريباً على وجهه الجلدي المتغضن وقال « عشرة جنيه . . عشرة جنيه ! ! مين يقدر عليهم يا سعادة الحكيمباشي »

وأدركت الطبيب رأفة بالرجل وقال « طيب ستة جنيه علشان خاطرك » وأشار له الى الباب . وكان الطبيب يعتقد انه عمل كل ما يستطيعه لما خفض اجرة العملية الى ستة جنيهات . ولكنه لو عرف شعور الرجل لدهش بل لريع . . وكيف يستطيع أن يصدق أن الرجل قد غضب من هذا التخفيض غضباً جامحاً حروناً كان من الممكن معه ان يقتل الدكتور إذ خيل اليه انه يهزأ به ولا يمكن ان يكون معتقداً حقاً ان فلاحاً فقيراً مثله يستطيع ان يدفع عشرة جنيهات . . ثم ماذا يقصد الدكتور من تخفيض المبلغ الى ستة جنيهات ما دامت ستة جنيهات مستحيلة كعشرة وكبليون جنيه . ولو خيرك انسان بين العمى وبين أن تطيل قامتك عشرة امتار ثم اشفق عليك فخفض الطلب الى ستة امتار فقط الا تغضب؟

وخرج وكانت الدنيا مظلمة في عينيه هو المبصر ، فكيف كانت في عيني زوجته العمياء؟ ! . . وتفزت لما امسك ذراعها وقد احست انها تمقته وانها تمقت ابنها وجاراتها وتمقت كل شيء وكل شخص لان كل شيء وكل شخص يمقتها . . نعم تمقتها ويزدريها هي العمياء التي لا تصلح لشيء . . آه تحقق الحلم الاسود واصبح حقيقة سوداء مروعة وما دام إبصارها معلقاً على ستة جنيهات فهي اذاً عمياء . . عمياء ولو حدثها زوجها الساعة لقتلته . . انها لتقتل جيشاً أو على الاقل تهجم على جيش . . لم يزعزعها المصاب ولم يهز قلبها ولم يضعضع جنانها . . لقد

تعلت تحت ثقل المطرقة القوية وثارت فيها اتفاق سوداء طغت على طيبتها الوديعة فأخفتها حتى كأنها لم تكن

واخذت الايام السبعة تهاوى واحداً أثر واحد ، وكانت ثورة نفسها قد مضت وخلفتها رماداً ذبيلاً ، وكانت تؤدي ما تستطيع من عمل وتترك ما لا تستطيع ولم تفه لزوجها بكلمة ولم يفه لها بكلمة وكانت تدير ظهرها ان احست بدخوله الدار وكان الامر فيما يتعلق بها مقضياً . هي عمياء وطالق وقد مات زوجها عنها ومات ولداها وماتت حياتها . وكانت الستة جنيهات المطلوبة تبدو لها في ناحية من رأسها على شكل كومة من القطع الذهبية التي شهدتها مرات معدودة في حياتها .. ولو عرضت عليها الارض والسماء مقابل ستة جنيهات لما اشترتها . من اين لها الستة جنيهات ! ؟

وها هي الساعة تعبر ليلها الاخيرة الى العمى .. العمى الدامس الكئيب وهي منبطحة على الارض تحمل يداها المطويتان جبينها المهموم . وكانت في غمرة من الحزن والالم كأنما هي في سكرة النزع .. وكان زوجها جالساً القرفصاء الى جوارها ووجهه الجلود الناشف مرفوعاً كأنما كان يستلهم السماء . ولم يكن قانطاً قنوط زوجته بل كان لايزال يرجو أن يتحقق المستحيل . لقد كان يعلم أن هناك رجالاً ينهم العمدة ينفقون ستة جنيهات على خاتم من خواتم مصر في ليلة واحدة .. وكان يعلم ان الستة جنيهات موجودة في الدنيا آلاف المرات .. ولكن كيف يستطيع هو ان يحصل على الستة جنيهات .. الستة جنيهات .. أين يجدها وكيف .. الستة جنيهات . . . . ونبهته سعلة طويلة آتية من الطريق سعلة « عم مسعود الخفير » التي طالما دعته في الليالي الست السابقة التي قضاها مسهداً . . . طالما دعته الى ان يرتكب الجريمة فيقتل عم مسعود ويأخذ منه الستة جنيهات

وطالما قمع الفكرة بقسوة ولكن السعلة كانت تعود الى دعوته مرات عديدة . والليلة ختام الموعد فإما ان يكون المبلغ في يده في الصباح واما ان تعمى المرأة ولن تدعوه السعلة مرة اخرى . . . الليلة والا فلا . وماذا يصنع بها بعد غد ؟ انهُ ليردها الى صاحبها ان عثر عليها بعد غد . . . ولكن امرأته نفيسة . . . نفيسة الرقية القناع الحازمة اتذهب عيناها في ريعان شبابها وهو مكتوف عاجز ؟

وتصلب الوجه الاسمر الجاد وتسيطرت الفكرة المجرمة في الرأس المحموم وسار احمد بقدم ثابتة واقب رافع ليقتل الرجل كما يقتل الانسان الفرخة التي يسد بها جوعه او كما يقطف البقلة التي يحتاج اليها . . . انستة جنيهات . . . الستة جنيهات انهُ يريد الستة جنيهات ولم يخطر بباله أن يسأل كيف يقتل الرجل لانهُ كان مدفوعاً الى القتل

بغرائزه لا بعقله . ولم يكن الأمر عنده خطة توضع وتنظم وتنفذ ، ولكنهُ كان عملاً محتوماً لا بدَّ أن يحدث بصورة ما من الصور ولم يخطر ببالهِ ان الفقير — على فرض انهُ علك الستة جنيهات لا يحملها معهُ في جيبهِ . من أين لهُ ان يفكر في مثل هذا الامر وهو الذي كان طوال الايام الستة الماضية يقلب كل حجر يصادفهُ عسى ان يجد تحتهُ كنزاً مؤلفاً من ستة جنيهات . لقد كان عازماً أن « يقلب » عم مسعود ليجد تحتهُ ستة جنيهات

***

لم يسر مجرم الى جريمتهِ أبرأ مما سار احمد ولا أطهر . ولم يكن طفلاء النائمان أعف ولا ازهد في متاع الحياة الدنيا منهُ هو الذي خرج يقتل ليسرق . . . . اللهم هبك توقفتهُ الساعة قبل أن يدرك مسعوداً أكنت حقًّا تاقته الى الجحيم ؟

وكان الرجل يسير كما لو كان في حلم ولم يكن مسعود (الفريسة المتيدة) ماثلاً في ذهنهِ وماذا يهمهُ مسعود وأي شيء يعنيه فيه ؟ ! إنها الستة جنيهات هي التي كانت تسد في وجهه عرض الافق فلا يرى إلاها شيئاً ولا يرى خلالها احداً . . . . الستة جنيهات أنهُ ليقتل أهل الارض في سبيلها ولم يداخله شيء من الاسف على مسعود أطيب أهل القرية قلباً وأعفهم لساناً . . . . إنهُ كان خارجاً ليقتله وهو يجهل انهُ سيموت أن قتله وانهُ ليُراع من الخبر في الصباح كما يراع اقرب اقرباء مسعود وسيأسف اكثر مما يأسفون ولو رأى قاتلاً يهاجم مسعوداً لدافع عنهُ حتى الموت لانهُ لم يكن يقصد به سوءاً ولكنه يقتله ليأخذ الستة جنيهات ممن وكيف ؟ ليس يدري . وها هو على باب داره والبقرة العزيزة شريكتهُ في الجهاد تخور كأنها تسأله أين أنت ذاهب في منتصف الليل . . . . آه لو كانت البقرة ملكه ! لولم تكن بقرة «الحج حسن» التي يخدمها هو وتخدمها امرأتهُ ويخدمها اطفاله في مقابل نصف ما تدره من ربح . . . لو كانت ملكه ! ! ولكنها سيدتهُ وقيمتهُ في الانفاق على داره . . . إنها لتساوي اكثر من عشرة جنيهات لو كانت ملكه ! وأحس انه يحبها ووضع يده على رأسها وكانت عيناها تفرسان فيه وبدت له عينين واسعتين نجلاوين . لماذا لم تمت البقرة وتلد الزوجة ؟ ! ! ماذا تصنع البقرة بعينيها ؟ وركلها بقدمه في بطنها وتركها ومضى في عاصفة من خوارها وكانت رجلاه تحملانه الى حيث يجلس عم مسعود وكان منتفض الاعصاب ثائر النفس وكان يستطيع ان يفعل كل شيء . لقد كان يجتاز ساعة تحية من الساعات الحرجة التي فيها تنسحب ذواتنا وتتقمصنا آلهة أو شياطين

وها هو مسعود يرقب الطريق ببصره الحاد ويؤنس وحشة الليل بسعاله الطويل . . . ولم يكن احمد يرى مسعوداً ولم يكن يرى احداً أو شيئاً وها هو مسعود يستدعيه ويستبطه

من اجوازه النائية . . . . وها هو جالس الى جوار القريبة البريئة وذهنهُ المحموم معطل لا يعمل . . . . وكان الخفير يلف سيجارة آتى بها احمد وتناولها ذاك وهو غارق في افكاره داعياً للقريبة المتيدة بطول البقاء . . . وكان الرجلان متربعين على أديم الارض احدهما بإزاء الآخر على اتم ما يكون من صفاء النية ومع ذلك فان أنفاس ملك الموت كانت تغمر المكان وتسمم الصمت الثقيل

وكان مسعود يعلم ان نفيسة قد نكبت في نورها . ولكنه لم يكن يعلم تفاصيل الامر فسأل احمداً « وازي جاءتك مش راقت عينيهم ؟ » وظل السؤال برهة معلقاً في الصمت المسموم ثم قال احمد « راقت !؟يا ريت . . يا ريت» ومضى يقص القصة المؤلمة قصة الآمال الخائبة والآلام التي حلت ظلاماً في عينيها ووقراً في قلبها . . . حلت ولن تذهب . ولم يكن يبكي وهو يتحدث . انهم لا يكون الا اذا اخذوا على غرة ، ولم يسقط الى الارض مغمى عليه . انا لا نسقط الا اذا علمنا ان هناك من يحملنا والفقراء لا يسقطون على الارض مغمى عليهم . . . وكانت كلماته تتصاعد من فيه بصعوبة كانما كان ينتزع سهاماً مسمومة من قلبه ، وكانت زفرات غير مسموعة تقطع كلمات القصة القصيرة . . وقد بدا ساعتها كانه كان يحمل حملاً ثقيلاً ينوء تحته لانه كان مقوس الظهر ويداه تتشبثان بصدر مسعود وأنفاسه القصيرة السريعة تهب على الوجه المغضن الاشعث ومضى في قصته حتى جاء دور صدمة الستة الجنيهات وناء احمد تحت الحمل وارتمى على صدر الخفير الفقير ذي الصدر النبيل الحافل بالمروءة والمؤاساة وهل للفقير أخ الا الفقير

وكان صدر مسعود في تلك اللحظة هيكلاً تحدث فيه معجزة كامجد المعجزات وكانت لحظة قدسية نادرة قل ان تشهد البشرية مثلها وانقلبت الأرض سماء كا كل ما تكون السماء.. لحظة فنيت فيها الاشخاص والاشياء وانعدمت الشخصيات والماديات ولم يبق من احمد الا روح معذبة تلوى وتئن ولم يبق من مسعود الا روح قوية لا تحدها الاتية ولا تقيدها الحدود والاوضاع

كانت عيناه مفتوحتين تريان رؤيا . . كان يرى شخصهُ . . شخصهُ المادي يجتاز سنين حافلة بالليالي الساهرة والايام الكادحة المجدة أربعة عشرة عاماً طويلاً وفي يده كيسهُ الضيق يجمع فيه عرق جبينه قطعاً فضية صغيرة ريالات وانصافاً وأرباعاً مجموعها ٨٤٠ قرشاً شابت فيها ناصيته ووهن عظمه فهي خلاصة شبابه وعكاز شيخوخته ٨٤٠ قرشاً وهبها ٨٤٠ جنيهاً او ٨٤٠ عالماً كاملاً ، لم يكن يهتم . . وقد كان في رؤياه يرى شخصهُ المادي كأنهُ شخص آخر لا يعرفهُ ، وكانَ النقود لم تكن الثمن الذي باع به افراح شبابه ليشتري خبز شيخوخته . . لم يكن هو مسعوداً بل كان شيئاً آخر . كان القضاء . .

القضاء الذي لا يرد ولا يرحم ولا يتدبر . . الذي لا يعرف الحدود ولا الحقوق والذي يمنح ما يشاء لمن يشاء وقد منح ال ٨٥٠ قرشاً لاحمد المحتاج وكأنه لم يمنح شيئاً لأحد وكأنه لم ينفق حياة رجل على رجل آخر . وقبل ان تنطق شفتاه بكلمة او تتقيدا بوعد او قيد كان الامر مقضيّاً ، لأنه عنده كان قد «سطر في الكتاب » ، لا ندم ولا رضى ولا شعور بألم التضحية ولا بمجدها . نوع عجيب من الخير تعجز عنه الأرواح المهزولة التي تتسكع في باحات الحياة وتعرفه وتستطيبه أرواح قوية تعلو رؤوسها فوق الرؤوس وتسامت أجوازاً لا تطاول وكان مسعود الآن جالساً القرفصاء رافع الرأس جليل الملامح وعباءته تتدلى من على كتفيه كرداء ملكي وعصاه الطويلة أصلها في الارض ورأسها الى السماء وكان قابضاً عليها من منتصفها وهو مستند اليها كأنه يهم بالنهوض . أننا لنبدو عظماء ونحن نصنع اعمالاً عظيمة لأن أرواحنا تكون متألقة فينا

وانسابت الكلمات المباركة من شفتيه كجدول مترنم يعلم أنه سيروي أرضاً عطشى ويحمل لاوجدانها ثماراً بهيجة ولاعطافها زهوراً منيرة ومضى يتحدث عن الحياة القاسية على الفقير ولمن الفاقة . العدو الجبار الذي يوقف الانسان مكتوف اليدين وهو ينتزع الحياة من صدر ابن له صغير او يضع أصابعه القاسية في عيني زوجة له عزيزة

ثم سعل وتلجلج وهو يقول «وانا والله يابو محمد معاي سبعه عايجنيه خدهم انفك فيهم دلوقت . . . هم ليهم عوزه اكتر مني . . هو انا بعد النظر فيه حاجة ! ؟ . . أقوم أجيبهلك »

ووقف الرجل الكريم مستنداً الى عصاه الطويلة . وكان احمد جالساً على الارض رافعاً وجهه اليه مشدوه الفم واسع العينين وكانت الدنيا تدور امام عينيه وتطن في أذنيه . . . وكان يمثل الموقف على مهل . . المعجزة المفاجئة ! ! وأخيراً طفت عليه الحقيقة كبحر خضم وكان مبهوراً يلهث واقفاً أزاء الرجل الذي انتشله من الهاوية . . ثم ارتمى بين الذراعين القويتين ومضى يقبل الصدر الواسع وهو يتمتم «ياعم مسعود ياعم مسعود» والدموع تنهل من العينين اللتين قل أن عرفتا البكاء

ومضى « عم مسعود » بعد برهة قصيرة الى شجرة الجميز القريبة وأخذ يحفر في جوار جذعها الضخم ليخرج كيسه المدفون ، كيسه الشق الثقيل . ولما أخرجه عاد الى احمد وهكذا انفقت حياة رجل على رجل آخر

سليم شحاته الجمالي